الحياكة ومرادها واتقانها في زوق ميكائيل

بقلم حضرة الاب جبرائيل كبرلوس احد اساتذة مدرسة عنطورة العامرة

الحياكة صناعة متوغلة في مجاهل القدم ومعتبرة عند جميع طبقات الامم فهي لحياة قالب الاجسام البشرية كالقوت لقلبها تحاكي المأكل والمشرب ضرورة ولزوماً في كل اوقات المعيشة وتشابهها غلظةً ورخاء بتنوع مرادها واختلاف اجناسها وتنافسها قيمةً وعظمةً بكيفية صنعها ودقة حبكها. فكما ان الاشراف والمتمولين من الناس والمتوسطين والعامة منهم من المآكل والمشارب فنون الالوان هكذا لهم جميعاً في الحرير ضروبُ الحلل وفي الصوف والكتان وغيرهما صنوفُ الملابس وأنواع الثياب والانسجة. فلا عجب والحالة ما ذُكر اذا شاهدنا اصحاب هذا الفنّ في كل قطر ومصر يتنافسون بمصنوعاتهم ويتسابقون في ميادين اتقان نسجها واجادته. وبما ان غاية قصدنا التكلُّم عن مصنوعات زوق ميكائيل دون سواها فيجدر بنا قبل الأخذ به ان نأتي على ذكر اهم موادّ الحياكة والإلماع الى تاريخ نشأتها

١

ان اخصّ الاصناف التي تُصنع منها الانسجة انما هي الكتان والقنّب والقطن من النبات والصوف والحرير من الحيوان

(فالكتان) نبات حولي اصل منبته في سهول آسية الكبرى استجلبهُ الاوربيون منها الى بلادهم واحسنوا استعمالهُ زرعاً واستغلالاً. وقيل انَّ المصريين هم اوّل من زرع الكتان واهتدوا الى عميم منافعه بواسطة إلهامهم ايزيس وما لبثت زراعتهُ ان عمّت القطر كلهُ منذ أيام موسى وكثرت مداخيله وتوفّرت وارداتهُ فاشتهرت معاملهُ وملأت صادراتها ممالك قياصرة الرومان في عهد ولايتهم

ومما يزيدنا تأكيداً بان الكتان كان عمومياً في مصر هو اسراف اهلها في استعماله اذ تبيَّن اليوم بواسطة ظأرات « تميسون وبان وديتروشه » بان لُحمة الاكفان التي كانت تحنَّط بها الاجسام من سفلة الشعب المصري القديم وسُداتها كانتا من الكتان وليس من القطن كما تُوهم بادئ ذي بدء استناداً الى رأي بعض علماء العاديات المصرية

ولنا في اسفار العهد القديم في سياق كلامها عن جنس اوشحة الاحبار واردیتهم حجة قاطعة و برهان ساطع لا يبقي مجالاً للريب في قدميَّة ما اثبتناه

(القنب) هو اشبه بالكتَّان جنساً وحياةً لا يختلف عنهُ سوى بعروقهِ التي هي اثقل واغلظ من عروق الكتَّان وامتن منهـا التي به الغربيون من الهند الشرقيَّة اصل منشاه الى بلادهم منـذ زمن لا يُعرف بدؤهُ ولم يكن يستعمل الَّا للأشياء الثليظة كالقُلُس والحبال واستمرَّ كذلك الى منتصف الجيل الخامس عشر حيث نبهت كاترينة دي مديسيس ملكة فرنسة الافكار الى تحسين مصنوعاته فعمل العملةُ فكرهم في تلطيفها وتوصَّلوا الى نسيج الخفيف منهُ (الجنفيص) والمشمَّعات وغيرهما

(القطن) هندي الاصل اكتشف عليه اليونان في الجيل الخامس ق م حيث قال احد كتبتهم المشهورين والمؤرخين المدقّقين العالم هيرودوت بعد ان جاب ارض مصر وآسية الغربيَّة سائحاً ما تعريبهُ : « انَّ الهنود لديهم نبات يثمر بدل الثمر صوفاً هو اجمل من أصواف الضأن وافضل منها يصنعون منهُ كسوتهم ». وقبل ابتداء النصرانيَّة بقليل كان قد ذاع هـذا الصنف في جزيرة بلاد العرب والاقطار المصريَّة ثم انتقل الى بلاد اليونان فايطالية في اوائل النصرانيَّة وتوفَّرت معاملهُ في العجم وارمينية واشتهرت ايما اشتهار في الجيل الثالث عشر وكانت قبائل العرب تنشر زراعتهُ في افريقية كلما افتتحت فيها قطرًا وحملت من امصارها مصرًا وهي التي جلبت بزورهُ الى اسبانية في الجيـل التاسع واقتدى بها الاتراك في الرابع عشر فاستعملوهُ في جهات البانية ومقدونية ومهر بكيفيَّة نسجه بعض اهل البندقيَّـة وميلان فهاجروا منها الى بلجكة وانكلترة سنة ١٤٣٠ حيث اذاعوا هذا الفن وعلَّموهُ لألوف من سكان تلك الديار. امَّا فرنسة فلم يُتح لها الحظّ ان تتمتَّع بواردات هذا النوع قبل الجيل السابع عشر وقد كان الاميركان قبل دخول الاوربيّين في ديارهم يستعملون قطن بلادهم خصوصاً في انحـاء البرازيل والانتيل وكولمبيا

هذا ما كان من جنس النبات امَّا (الصوف) فهو مادَّة ليفيَّة تكسو جلود الشاء وغيرها كالنعام وبعض الحيوانات الشائعة في بلاد بيرو كما يستر الشعرُ المعزى والوبرُ الابلَ. اكتشافهُ اول آبائنا منذ العصور الاولى بدلاً من تلك السُّتر الثليظة التي كانت تصنع من ورق الاشجار وقرفها ومن جلود الايائل والظباء وما شاكلها دفعاً لِبَرَدات الشتاء

(الحرير) خيط يجمع بين الدقّة والصلابة به ينسج دود الخزّ فيالجهُ ومنزلتهُ من الانسجة منزلة الذهب من المعادن قد اكتشفت سلطانة من الصين على كيفيّة تربية ديدانهِ وتسليك خيوطها وحياكتها سنة ٢٦٩٨ ق م فاقتدت بها رعاياها وجدّوا في طريق استثمار هذا الفن ومكاسبه

فلما رأى ارباب الحكم ما وراء ذلك من المغانم الجزيلة تحفّظوا بالأمر وسنّوا شرائع مشدّدة تقضي بالاعدام على ايّ حاول خيانة مصالح الوطن فاوقف الاجانب على مكنوناتهِ وفتح لهم بابًا ينسابون منهُ لاختلاس وارداتهِ. فنجحوا عملًا ونالوا املًا مكّن مملكتهم من التنعّم وحدها بمداخيلهِ الجليلة والتهادي بحاليهِ الفاخرة اجيالًا عديدة

ففي سنة ١٤٠ ق م قيّضت التقادير الى احد ملوك نُجاوى الصغرى الواقعة في أواسط آسيّة ان يتزوّج باحدى الاميرات الصينيّات التي عند التحاقها بحليلها والاجلاء عن مسقط رأسها أخبأت بزر الحرير بقلنسوتها غير هيّابة الفضيحة ولا نكبة الموت ان اشتهر امرُها وظهرت خيانتها. فافلحت حيلةً وسلمت من هذا الخطر وهكذا امتدّت صناعة الحرير الى الهند والعجم. ولم تدخل منسوجاتهُ الديار الغربيّة الّا بعد استظهار اسكندر ملك مقدونية على داريوس شاه العجم وذلك قبيل ال ٣٣٠ ق م

وبقي الرومان واليونان يبتاعون تلك البضائع الحريريّة تارةً من الفينيقيين الذين كانوا ينسجونها بعد استجلاب موادّها من الهند والعجم بطريق مصر والبحر الاحمر وطورًا من الفرس بطريق سوريّة لان بزور الخزّ والتوت لم تكن دخلت بعد الاقطار الرومانيّة بسبب المراقبات الشديدة التي وضعتها الهند والعجم اقتداء برصيفتها الصين

ولكن قرابَ السنة ٥٥٢ او ٥٥٥ خاطر بالحياة راهبان من رهبانيّة القديس باسيل وجلبا من احدى مدن اسيّة الوسطى الى يوستينيانوس ملك القسطنطينيّة بزور الحرير والتوت الابيض موضوعة في انابيب من القصب. فشكر لهما المليك الحكيم واهتمّ بترويج هذا الصنف في انحاء ولايتهِ اهتمامًا لم يمضِ عليهِ الزمن اليسير حتى تكاثر جناه وتعدّدت معاملهُ

ثم اخذت هذه الصناعة تنتشر تدريجًا في افريقية وايطالية وفرنسة الخ حتى بلغ ما تدرّ تجارتها في الحال الحاضرة في اربع جهات المعمور ما ينيف عن المليار من الفرنكات

ذلك مبلغ يبذل النفوس دون جمعه والحرص عليه اشدُّ البخلاء الحريصين ويصرف الحياة في سبيل صرفه اعظمُ المسرفين المبذرين

٢

لقد جاء في مطاوي الكلام ان الحياكة فنٌّ عُرف شأنهُ منذ العصور المتقدمة ولم يُحرم قطر من البسيطة كلها الّا مارسهُ اهلهُ ونبغ ما بينهم عُصب تميّزوا في اساليبه وفاقوا رصفاءهم باختراعات ابرزها الذكاء والجدّ الى عالم الوجود فاعترفت بها الاقوام وضربوا لذويها سرادق حمد وثناء خلدت لهم في بطون التواريخ ذكرًا جميلًا

وقد صح ان اقطارنا الشرقيّة عمومًا والسوريّة خصوصًا لم تعدم منذ القدم من دُهاة حاذقين بهذه الصناعة كما رأينا في ما سبق من الحديث عن مصنوعاتهم ومعاملهم وارداتها الى البلاد الغربيّة. امّا اليوم وان فضل الغربُ الشرق ونال في هذا الميدان قصب الرهان فانّا نرى في منسوجات بعض ديارنا كدمشق وحمص وحلب ما يذكرنا بسالف عزّنا وغابر مجدنا ويحفظ لنا في أعين الاجانب مقامًا رفيعًا ويصون ثوب سمعتنا بين ظهرانيهم. ولو كنتُ واقفًا على حقيقة فضل المتفنّنين في تلك المدن المتقدمة وبراعتهم في هذا الفن لرسمتُ على صفحات الورق ألوان وشيهم وأنواع زركشتهم ولكنّ مفاوز البعد ومخاطر القصور وصيانة الصدق في المقال قضت عليّ ان اترك لصاحب البيت عرض ما فيه من السلع واطلاع عامّة الناس عليها وخاصتهم مكتفيًا بوصف منسوجات الزوق احدى قرى لبنانّنا العزيز فاقول:

تبعد الزوق عن البحر ثلاثة كيلومترات خطًا مستقيمًا موقعها بين فُرضة جونيه ومدرسة عينطورا الشهيرة سكانها من الموارنة الّا بعض عشرات من الروم الملكيين فيها عدّة اديار للطائفتين ودير واحد لراهبات المحبة الاواتي من كلاريكة السلام لطفًا وعذوبةً ودماثةً يتعاطى اهلها التجارة والصنائع وحراثة الارض بيد انّ البعض منهم تفرّدوا بفنّ الحياكة الذي اكسب هذه البلدة شهرة بعيدة حملت ارباب « المشرق » الكرام ان يفسحوا لذكر ذويها في مجلّتهم المعتبرة مقامًا يقدّرهُ قدرهُ النبهاء الاذكياء ويجلّ مكانتهُ العقلاء الفضلاء.

امّا دخول هذه الصناعة في الزوق فغير معلوم اجلهُ الّا انّ المعمّرين يروون انّ اول من احترف هذه الحرفة أتى بها من حمص وعلّم فتة من مواطنيه نسج الاعبنة والعبايين

(الاكار) فاتبعوا هذه الطريقة البسيطة مدة سنوات طوال بيد ان المرحوم عبد الله ابي شقرا من نفس الزوق توفق من زهاء خمسين سنة الى رسم العروق الافرنجية والاسطنبولية على النول بالملحم (المكوك) فاخذ عنهُ جماعة من بلدته وجدُّوا بنسيج انواع الحلل من قُنع وأخرة ومناديل وكوفيات وستائر (برديات) ومناطق وضروب الأثاث إن فرشاً وإن كسوةً وكلها موشاة ومطرزة بخيوط فضية او ذهبية ومبرقشة بالألوان والرسوم المختلفة وفقاً لاذواق اهل العصر وأغراضهم . فتلقاها الجمهور بحسن الرضى واقبلوا على ابتياعها رغبةً واستنشاطاً فضاءت الزوق الجدَّ وبالغت باتقان هذه المنسوجات فبست لجمال مصنوعاتها ثغور النبلاء وأمهات المدن في سورية ومصر حتى وفي الديار الاوربية وكثرت عليها المطاليب وتوفرت لديها العملاء في كل صوب وأوب فاثرى سكانهم وعظم شأنهم وما زالوا يتسنَّمون ذرى التقدم والحظارة حتى فترت معامل الترب افواهها وقذفت الى هذه الأقطار من صنوف امتعتها ما قرَّ لهُ اعين الاهلين وميَّل خواطرهم الى استحسانه فقضى الغربي نفسهُ الطيب من شدَّة اعتقادنا بمقدرته على العمل وميلنا المفرط الى تفضيل الجديد وتعزيز الغريب ونحن لم نحفل بتوقيف حركة تجارة الوطن وتقهقر اشغال اهله بل اقبلنا نسترد من ادوات الاجانب مسرورين وهم يضحكون من جهالتنا ولسنا بشعرين

ثمَّ تتبع آثار عبد الله المذكور المرحوم راشد ابي شاكر الديراني اصلاً والزوقي موطناً فبرع برسم اجناس العروق وانواع الرسوم وايقظ الافكار من غفلتها واحيا الهمم بعد ميتتها . وقد امتاز في هذه الأيام نخبة من عمة هذه البلدة كالمعلم البارع يوسف بن عبدالله ابي شقرا وانطون مهنَّا والياس ابي شقرا وسليم انطون ملحه وانطون سلُّوم الدمياطي وخليل حنَّا شاهين ليس فقط باحكام الحيك ومتانة المتاع بل باجمل الرسوم ودقَّة الوشي والتطريز والتبرقش فقاقوا من تقدَّمهم جميعاً تأنقاً وزخرفة وحاكوا مهرة المصورين بأن رسموا رسومهم نسجاً على المنسج بالملحم لا بالمنقش او التصوير الشمسي فاستوقفت بدائع حذقهم الابصار وادهشت غرائب ذكائهم البصائر فقصدهم محبو هذه الازيان وجاؤوهم أرسالاً من كل وادٍ وناد ليستصنع هذا رسمَ مليكه وذاك حبيبه وذلك صورة موضوع آماله ومرجع امياله لتُرقم هدايا حمدٍ وشكر ورموزَ ودادٍ وحفظ ذكر . وقد اتحفني المعلم يوسف عبد الله ابي شقرا إمام هؤلاء العملة باسماء كثير ممَّن صنع رسومهم

على الطريقة المتقدّم ذكرها انما ضيق المقام لا يسمح الّا بذكر ارفعهم منصباً واسماهم مقاماً ليقف القارئ على فضل الصانع واهميّة صناعته وهم: جلالة امبراطورَي النمسا والمانيا(١ الحاليين وحضرات نجل صدر الصدور العظام ابي الهدى ونجل الصدر الاعظم في الاستانة العليّة والولاة الفخام ملجأ ولاية بيروت وسوريّة ومتصرفيّة لبنان وسليم باشا الملحمه وشقيقه نجيب وحربهما رغبطة بطريركي الارمن والسريان السابقين

ولنا في ما رفعهُ اعاظم هذه الديار واعيانها من المنسوجات التي نحن بصددها كهدايا فاخرة لقداسة لاون الثالث عشر بنسبة يوبيله الكهنوتي في جملتها صورتهُ الكريمة موشّاة وكمقادم عبودية واخلاص للحضرة السلطانيّة في عيد يوبيلها الفضيّ وهدايا اعانة ورأفة لسوق الشفقة في عاصمة ولاياتها المحروسة اكبر دليل على رفعة قدرها وسموّ مكانتها .

وخلاصة القول انَّ عَمَلة الزوق اهل بان يصنعوا لكلّ ذوقهُ من المنسوجات الحريريّة والصوفيّة والقطنيّة بسيطة كانت او معلمةً بانواع الخيوط ان فضةً وان ذهباً ومبرقشة باصناف الرسوم والتماثيل طبقاً لكل مذهب وهوى فعلى ابناء الوطن ان ينظر بعضهم الى بعض اين وكيفما كانوا نظرة توقي شأنهم وتعلي مكانهم لانَّ التعاضد في الامور موطد للقوّة ومجلب للراحة موفر اسباب السعادة داعٍ الى السلام مبعد من البلاء مُدنٍ من الكمال فان حفظناهُ ثبتت معاقل مجدنا في وجه كرّات الطوارئ واستمرّت أطواد عزّنا راسخة وقلاع سطوتنا عامرة وآثار فخارنا غير دارسة والّا نُسفت رُدكّت وقُلعت وُمحيت اجارنا الله من شرّ الانقسام فهو القدير وبالاغاثة جدير

وصف الصين للقلقشندي

نبذةٌ تولى نشرها الاب هنري لامنس اليسوعي (تتمّة)

ومنها « السيلي(٢» قال في تقويم البلدان: ويُقال لها سيلا ورأيت في بعض الكتب سيلان بزيادة نون بعد اللام والالف . قال: وهي مدينة (٣ في اقصى الصين الشرقي خارجة عن الاقليم الاول الى الجنوب. قال في القانون حيث الطول مائةٌ وسبعون درجة

١) ورسم جلالة امبراطور المانيا لم يزل حتّى الآن في محل الفاضل الخواجا ليان سركيس

٢) السيلي توافق اليوم بلاد كوريا . وقيل ان العرب ارادوا بالسيلي بلاد يابان (راجع المسعودي ٢: ٢٤٦)

٣) والصواب ان كوريا شبه جزيرة مستطيلة